

القيم الجمالية للشعر الجاهلي

ط.د/ براهيم صليحة

جامعة جيلالي البابس - سيدي بلعباس

يعتبر الشعر من الفنون الأكثر انتشارا بين الجماهير، وهو من فنون التعبير اللغوي القديم قدم الإنسان ومن العلماء من يقول أسبقيته على النثر لأنه يعبر عن العاطفة البشرية والأحاسيس والانفعالات وهي من الحوافز الأولى للتعبير الفني¹، ويقال الشعر: "منظوم القول غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية والمتشاعر الذي يتعاطى قول الشاعر"²، ويعرفه ابن خلدون بقوله: هو الكلام البليغ المبني على الأوصاف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والقافية³، ويعرفه أيضا أبو حاتم في كتابه "الشعر كلام موزون... وإنما سموه شعرا لأنه كان يفطن له غيره من معاني الكلام وأوزانه⁴. ويقول قدامة بن جعفر: " الشعر بأنه قول موزون مقفى يدل على معنى أنه سمي الشاعر شاعرا لأنه يشعر معاني القول وإصابة الوصف بما لا يشعر به غيره وعرفه ابن طباطبا في كتاب عيار الشعر بأنه بائن عن المنشور بما حظي من النظام⁵، فعلام يبدو من التعاريف أن للشعر أوزان وقواف يكون له بها إيقاع يدل على معنى مع إبراز العواطف النبيلة باستعمال الخيال.

كما أن الشعر الموجه للأطفال له أهمية كبيرة في تربية وتنشئة الطفل تنشئة كاملة، فما مدى حضور الشعر في مناهجنا التعليمية في النصوص الأدبية عند الطفل، وخاصة الشعر الجاهلي، وهل أنصفت المنظومة التربوية في مناهجنا الأدب شعرا، وما هي أهم القيم الجمالية التي ينميها الشعر الجاهلي، فكان الكتاب المدرسي للغة العربية مرجعا أولا في هذا البحث القصير معتمدة على المنهج الوصفي التحليلي في رصد النصوص الشعرية في الكتاب المدرسي وتبين القيم الجمالية في تعليمه للناشئة .

أهمية الشعر لدى الطفل :

النص الشعري قطعة نظمت الحياة بدفقة شعورية في مجموعة أبيات تعكس ثقافة شعب وحضارته وموروثه الفكري، هو لوحة فنية قيدت في تلك المنظومة، فقد حوى في طياته الكثير من الظواهر الدالة التي عبرت عن حياة العربي وسمات فكره وآرائه بما يمكننا ويمكن الأجيال اللاحقة من استنباط حياة العربي إذ الشعر مرآة عاكسة لها . ولما كانت له هذه الأهمية تطلب تسليط الضوء عليها وكشف جميع الأدوار التي يؤديها الشعر في حياة الإنسان والطفل خصوصا وانه في مرحلة تكوين شخصيته وتنمية مهاراته ومعارفه فللشعر الموجه للطفل أهمية كبيرة في تربيته ونشأته فهو:

- ينمي لدى الطفل التحكم الذاتي في اللغة ويؤكد ذاته ويجرر إدماجه مع الجماعة التي يعمل معها .
- يزودهم بالحقائق والمفاهيم والمعلومات في مختلف المجالات فهو يمنحهم الألفاظ والتراكيب التي نمي ثروتهم اللغوية وتساعدتهم على استخدام اللغة استخداما سليما .
- ينمي الجوانب الوجدانية والمشاعر والأحاسيس ويشبع حاجاتهم النفسية المتعددة⁶.
- ينمي مهارات التذوق الأدبي والأداء اللغوي وتمثيل المعاني وإخراج الحروف من مخارجها والطلاقة اللفظية والاستماع الجيد إلى كل ما هو جميل في مضمونه لغرس التذوق الأدبي لدى الطفل في هذه المرحلة وسبيل إلى تحبيب الأدب فيه .

- تزود دراسة الشعر للأطفال بالمفردات والتراكيب والعبارات الجديدة التي تنمي رصيدهم اللغوي وتمكنهم من استخدام اللغة استخداما صحيحا سواء كان حديثا أو كتابة .

- تنمية مهارات الطفل على قدرة الفهم والاستيعاب مهما كان النص غامضا أو صعبا.

تعليمية النصوص الأدبية الشعرية :

من خلال المعاينة الميدانية للواقع التربوي وتبني المناهج التربوية ، والوثائق والكتب المدرسية نستخلص إن الأهداف المرجوة من النصوص الأدبية في مرحلة التعليم المتوسط تتمثل في تعزيز ارتباط المتعلمين بتراثهم وبالقيم والثوابت والمفاهيم السائدة في مجتمعهم ودفعهم إلى تمثيلها واعتبارها جزء من شخصيتهم...

يتضح أن النص الأدبي مهما كان جنسه نثرا أم شعرا يعتبر الوسيلة الأكثر نجاعة للوصول إلى تحقيق تلك الأهداف بنسب مقبولة، فالنص الأدبي لما يتضمنه من عمق في الأفكار وجماليات في الأسلوب التعبيري هو مصدر للإثراء الفكري واللغوي والتذوق الجمالي ولما يتضمنه من أبعاد إنسانية وقيم وتوجيهات توجه سلوك المتعلم، يعد من أهم المواد التعليمية التي ترسخ قيم الأمة وتؤصل ثوابتها لديهم ومن خلالها لدى المجتمع برومه.

القيم التعليمية للشعر الجاهلي:

يعد الشعر الجاهلي من أرقى المظاهر التي انتظمت فيها المفردات اللغوية لتعكس حياة الجاهلي وتدلل على ثراء لغتنا العربية ومرونتها ، فالشاعر القديم قد صور كل ذلك في قصائده فصاغ معانيها في عقد فريد أبقاها الزمن لأجيالنا، وكان من الضروري إدراج النصوص الجاهلية في مناهجنا التعليمية لتميط اللثام عن جمالها وحسنها فيتعلم منها أبناؤنا، وكثيرة هي تلك القيم الرفيعة أو الخلال الحسنة أو العادات السوية، وكما وجدت القيم الجميلة فتوجد إلى جنبها الصفات النقيضة لها فهذه طبيعة أي مجتمع، فمع الكرم والشجاعة والحلم نجد البخل والجبن وغيرها ...

وما يهمنا هو القيم الجميلة التي ينبغي أن تسقى في مجتمعنا ووسطنا المدرسي ، فالمتعلم يرصد كل ما يرسل إليه ويتلقاه من تأثيرات خاصة في مجال تعليم النصوص في مادة اللغة العربية .

وقد كان العربي في جزيرته يدعو إلى الكرم والسخاء وكان يدافع عن جاره وعن حريمه... ويغيث من يستغيث به ولو أوصله ذلك إلى حتفه ونهايته، وكان العربي الجاهلي عفيفا في حبه، ويشغل نفسه بما هو سام ، عادلا في معاملاته متواضعا مع الناس يدعو إلى التراحم والتألف ولنرصده مجموعة من القيم التي يحويها الشعر الجاهلي هذا النص الغائب تماما في كتبنا ومناهجنا التعليمية عامة والمتوسط خاصة :

الكرم :

اشتهر العرب كثيرا بالكرم والعطاء والسخاء ومدحوا به وافتخروا بهذه الفضيلة ولنا في تاريخنا الحافل بالأبجاء الكرماء أمثال: حاتم الطائي، عقبة بن بجير المازني، المزارع الفقعي العدوي، هرم بن سنان، صخر، معاوية، عروة بن الورد، حازم بن أبي طرفة الذي أوصى ابنته أن تربيته إذا مات بالجدود والكرم وأنه كان مأوى الجياع والبائسين يقول:

بنية إن الموت لاحق بشيخك ماضي الأنام المودع
فإن قمت تبكي فقولني أبو الند ي ومأوى رجال بائسين وجوع⁷

وحاتم الطائي الذي ضرب به المثل الخالد في الكرم فكان ينبسط ويتسم في وجه الضيف ويأنس ويسعد بحضوره ويسال أم منذر قائلا :

سلي الجائع الغرثان يا أم منذر إذا ما أتاني بين ناري ومجزري
هل ابسط وجهي انه أول القرى وابذل معروفني له دون منكر⁸

وكان حاتم يضاحك ضيفه أيضا فالضحك والبشر كان هو الآخر نوعا من أنواع الكرم يقول الطائي:

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ويخصب عندي والمحل جديب
وما الخصب للضياف إن يكثرؤا القرى ولكنما وجه الكريم خصيب⁹

فبرغم البيئة الصحراوية المترامية الأطراف الكثيرة القحط والجذب والجفاف والفقر كان البذل والعطاء لكل محتاج فيها ، يقول الدكتور جواد علي: " كان العرب يعيشون في بادية شحيحة بالزاد، وحياتهم ترحال وتجوال، وكل منهم معرض لان ينفذ زاده فهو يقرى ضيفه اليوم، لأنه سيضطر إلى أن ينزل عند غيره في يوم، فليس في البادية ملجأ يلجأ إليه غير الخيام المضروبة هنا وهناك... فإذا امتنع صاحب الخيمة عن أداء حق الضيافة عرض ضيفه للخطر وعرض حياته هو إلى ذلك الخطر"¹⁰، فدافعهم الوحيد للكرم هو تركهم الأثر الطيب وحسن السيرة.

قيم المروءة والشجاعة والإقبال:

كانت الشجاعة عند العربي ولا تزال، فقد ولدت معه ولازمته في كل مراحل عمره، يقول أحمد الحوفي: "وإذا تقصينا حياة العربي منذ طفولته أدركنا أن الشجاعة ولدت معه وانه شب وكبر وهي تتمشى في دمه، وكيف لا وقد ربى في بيئة تتمدح بالبطولة والإقدام وحسن البلاء في حماية الجار والأخذ بالثار ، وبالعنوان في كثير من الأحيان، وطالما فزع طفلا على قعقة السلاح ، وصيحات المقاتلين، وسمع الأقاصيص عن شجعان من القبيلة حموها، وردوا المغيرين عليها، أو هجموا على أخرى واجلوها في ميدان الوغى تتنازع ثم كبر فشارك في المواقع وافني العمر في المعارك فلا عجب إن كانت الشجاعة خلقا عاما عند العرب"¹¹، فالطفل العربي يفتح عينيه على الشجاعة ويرضع منها وينشأ ويشب ويشيب فيها مع تقدم العمر تكبر معه. وهكذا نريد أبناءنا يتغذوا على ما غذي به العربي منذ صغره ، فهذا عنترة يلبي نداء قومه في الحرب التي خاضوها يقول:

بكرت تخوفني الحتوف كأني أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها أن المنية منهل لا بد أن أستقى بكاس المنهل
فاقتنى حياءك لا أبالك واعلمي إني امرؤ سأموت إن لم اقتل
وإذا حلمت على الكريهة لم اقل بعد الكريهة : ليتني لم أفعل¹²

ولقد مات عنترة وهو في معركة وقد ناهز من العمر الثمانين في شجاعة واستبسال.

القيم التاريخية التي تمتن علاقة التلميذ بعرويته وماضيهِ:

كان العربي الجاهلي يقطن الصحراء ويعيش في أطرافها المترامية فيها كل حياته الفكرية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية يتأثر بمن حوله، أهل حضارة وتاريخ وشهدت عليهم دولهم المجاورة وخلدتهم آثارهم الباقية ، وان لم يعتمدوا على الكتابة إلا انه وصلنا بالرواية والمشاهدة سجلا ذاخرا مليئا بالبطولات والأجناد، وضربا خالدا لتجسيد المعاني الإنسانية الراقية

القيم اللغوية في الشعر الجاهلي:

العرب أمة فصيحة تجيد الكلام والتعبير وتتفنن فيه فقد نقل الشعر الجاهلي لنا رصيذا كبيرا من المفردات التي لو تعلمتها الأجيال لكانت أفصح بيانا، استعملوا اللفظ في موضعه وبذكاء حتى وصفوا بعض الشعراء بما نبغوا... فقليل المهلهل لأنه أول من هلهل الشعر أي أرق... والمرقش الأصغر والأكبر لحسن شعرهما وجماله وشدة تميمه... والمتقّب والمنخل والنابعة، فكل واحد منهم كان له صفة بارزة أو سمة تميزه وتفرده عن غيره. وقد بلغت لغة العرب في الشعر الجاهلي حدا من البراعة والجمال والإجادة، فما ترك الشاعر العربي الجاهلي خلقا إلا وأشاد به في شعر جميل راق، وإن كان يصدر عن أغلبهم عن السليقة بيسر وسهولة، "وهي ملكة من الصعب الرجوع إلى أسباب تواجدها لديهم وامتلاكهم ناصيتها. فكما اشتهرت اليونان بعلمها وفلسفتها واشتهرت الرومان بعظمة السلطان وكثرة المدائن والهند بطبعها وحكمتها والصين بفنونها وهؤلاء قد عاصروا العرب في أزمان جاهليتهم ولم يؤثر عن العرب إلا تلك الملكة التي استطاعوا أن يرسلوا القول ويصوغوا الشعر"¹³، فكان الشاعر الجاهلي مطبوع دون تكلف تندفق لغته سحابة ينقلها في لوحات نقلا دقيقا صادقا يعبر فيها عن حياته وبيئته .

القيم الفنية في الشعر الجاهلي :

- كان من أهم صفات وسمات الشعر الجاهلي توفره على القيم الفنية التي أكسبته جمالا وقوة وتفردا واهم هذه القيم ما يلي:
- **الخيال:** ففساحة الصحراء وشساعة كان الخيال العربي تماما كجو البيئة غير محدود ولا حد له: "ولعلك تستغرب إذا علمت أن الشعراء الذين اتصلوا بالحضر كالأعشى وامرؤ القيس والنابعة كانوا في خيالهم أوسع وأعمق"¹⁴، فذاك الجو العربي أتاح لشاعره العنان لكي يخلق بعيدا وعاليا بخياله فيرى ما لا تراه الحقيقة، وهذه أهم المقومات التي ينبغي أن تتوفر في تلامذتنا.
 - **الموسيقى:** فلقد تميز الشعر الجاهلي عن غيره بموسيقاه المميزة مع الجو العام للقصيدة فالإيقاع مستمد من المحيط، البيئة، يحاكي رقصات الخيل والفرس وحركات السيوف وطعنات الرماح فوجدنا بحورا طويلة التي تستوعب المعاني الكثيرة، فالشعر الجاهلي يحمل بنغم جميل من يتعمق فيه يجده أشبه بالنوتة الموسيقية في يد العازف الماهر، وتحتاج إلى قراءات متتالية حتى تستبينها يقول محمد النويهي: "اللفظ الرائع الموسيقي تام السلاسة بارع التنغيم ما بعد عذوبته وعذوبه، وبعض سحره الموسيقي يقرعنا بلا شك من القراءة الأولى، لكن براعته الفائقة لا تنجلي على أدقها إلا إذا قرأنا هذه الأبيات... مرارا"¹⁵، فالموسيقى حالة إنسانية فعلها الشاعر وأوجدها على لسانه وسود بها صحائفه وتناقلناها لاحقا عن سابق .

- **المادية والحسية والتشخيص:** فقد حاول الشاعر الجاهلي عرض الصفات المعنوية في ثوب مادي مثل قول طرفة في

الموت: أرى العيش ناقصا كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينفذ¹⁶

فلقد عالج العيش من الناحية المادية هو الدهر والأيام يتزايد ويتناقص كشيء مادي تماما.

لقد أفضت بنا جولتنا القرائية الميدانية مع الكتاب المدرسي مع مادة الأدب وخصوصا مدى حضور الشعر الجاهلي فيه وتسلط الضوء على أهميته والقيم الجمالية فيه إلى جملة من النتائج وهي :

تبين لنا خطورة الأزمة التي تعاني منها منظومتنا التربوية ومدى الإهمال والفراغ الذي يعاني منه الأدب وخصوصا الشعر وبالأخص الجاهلي منه الذي غيب تماما في الكتاب المدرسي في مدرستنا اليوم ، وقد ظهر ذلك جليا من خلال معاشتنا للواقع وإحصائنا للنصوص الشعرية العربية والجاهلية في الكتاب المدرسي فقد أصبح الشعر القديم أدبا هامشيا ولم يحظ الشعراء الجاهليون بالاهتمام الكبير .

غياب الشعر الجاهلي في الكتاب المدرسي، يؤكد لنا غيابا عن الساحة التعليمية والتعلمية والذوق اللغوي أيضا. كما لوحظ كثيرا عدم اهتمام التلاميذ بالشعر عامة والجاهلي الذي لا يذكر ولا يعرف اسم شاعر عندهم، وعدم تقرّبهم منه ونفورهم الشديد وإذا قرؤوا نصا فبدون رغبة أو حب ولا فهم حتى.

الهوامش

- 1- راتب قاسم عاشور، محمد فؤاد الحوامدة، فنون اللغة العربية وأساليب تدريسها، بين النظرية والتطبيق، دار جدارا للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 2006، ص340.
- 2- أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور ، لسان العرب، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان ط1، 1993، ص 410.
- 3- أحمد سمير عبد الوهاب أحمد، أدب الطفل، قراءات نظرية ونماذج تطبيقية، دار الميسرة للطباعة والنشر، الأردن، ط2، 2014، ص112.
- 4- رضا الغني الكساسيه، التشكيل الدراسي في مسرح شوقي وعلاقته بالشعر الغنائي، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2004، ص13.
- 6- راتب قاسم عاشور محمد فؤادة الحوامدة، فنون اللغة العربية وأساليب تدريسها بين النظرية والتطبيق، دار جدارا للنشر والتوزيع، ط1، عمان 2009، ص340.
- 7- حسن شحاتة ، أدب الأطفال العربي دراسات وبحوث ، ط1، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، 1991، ص112.
- 8- أحمد الحوفي ، من مقدمة من كتاب الحياة العربية ، مكتبة تحضة مصر ، ط4، ص322.
- 9- عادل سليمان ، ديوان حاتم الطائي وأخباره ، مكتبة الخانجي، دار مكتبة هلال، القاهرة، ط1، ص264.
- 10- عادل سليمان، ديوان حاتم الطائي، ص23.
- 11- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، ج4، ص575.
- 12- أحمد الحوفي، الحياة العربية من الشعر العربي ، مطبعة تحضة مصر، الفجالة، ط2، 1952، ص329.
- 13- ابن عبد ربه، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، ج1، ص97، وأحمد الهاشمي، جواهر الأدب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، لبنان، ط1، 2010، ج 1، ص 355-356.
- 14- بدوي طبانة، دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث، مكتبة الأنجلو، مصر، ط5، ص59-60.
- 15- عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، ج1، ص78.
- 16- محمد النويهي ، الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه، الدار القومية للطباعة والنشر، ج1، ص200.
- 17- الزوروني ، شرح المعلقات السبع للزوروني، الدار العالمية، د.ط، 1992، معلقة طرفة بن العبد، ص 147.